القمر عند تلة جادو

قصة : د. سيد شعبان

تبقت في ذاكرتي حكاية لم تسرد بعد؛ الموتى يزورون القرية في ليالي العتمة، يتسللون من أكفانهم البيضاء، يأتون في ثياب جديدة، إن لهم نصائح لما يقدموها لمن خلفهم، يسري الليل وفي الشتاء حين تشتد الريح، تتوالى الطرقات على الأبواب، تموء القطط، نحن لا نضربها، إنها ترى العالم الآخر، ثمة أسرار لا نحيط بها، الجن يسكن معنا، إنه يرانا من حيث لا نراه، كلما جاء الشتاء انزويت في فراشي، وضعت تلة من أغطية الصوف التي تورثتها عن أجدادي، كل واحد ترك لي غطاء، وهكذا صار لدي ركن مملوء بها، مسابح وشيلان وجلابيب، وحتى ألقاب لا تحصى فقد انتهت إلى وراثة الأهل، لا أدري ما الذي أيقظني الساعة لأسرد عليكم تلك الحكاية؟

في كفرنا أعرج يدب بعصاته بين الشوارع، لاتخفي عليه شاردة: امرأة مطلقة أو عزباء فاتها القطار؛ يتسمع نأمة النملة اليتيمة أو جني الجحر الذي حبسه سيدنا سليمان عليه السلام، في كل حديث له حكاية، اختفى زمنا ثم عاد؛ بعضنا يراه محتالا يلعب بالبيضة والحجر، تخوف الأمهات صغارهن من طلعته مقدم الليل، مكثت حارتنا سنين لا يدري أحد بما يمور داخلها.

على كل مللت النوم تحت تلك التلة من صوف ملبد برائحة الغنم، الانزواء في زمن المتاهة لا يجدي، والاكتفاء بمضغ الأسرار التي تركها الراحلون لن يمنع الصغار من أن ينبشوا عن مفتاح لحل اللغز الذي عجز الحكماء عن فك شفرته!

ركب الناجي حماره، والحرافيش حوله يفسحون له الطريق في موكب مهيب، كأنما اجتمع له مجد الملك وسطوة القوة ،رغم مرآه الموحي بالسلطة ؛إلا أن له هيئة بسيطة ،ثوبه رقعة تغطيه كأنما هي في عراك معه ،يهتف به الأتباع منقذا ،ويعقد له الدراويش ولاية ومقاما، عمامة خضراء فوق رأسه، تتدلى من رقبته مسبحة خشبية طويلة،حباتها تقارب المائة عدا، له عضلات مفتولة ،ومعه عصا خشبية تطول شارد الحرافيش!

أميرهم دون إمارة؛ حامي الحمى!

مملكة في الأرض وما الممالك غير سياج من قوة وسلطة مطاعة!

يطلبونه ليحميهم وهم المدفوعون بأبواب السادة هملا،يجوبون الحواري والأزقة، عندهم أجولة من كسرات خبز مهترئة،وكلاب تجلس بالوصيد!

الفقر غطاء بيوت من طين، ويا ليت لهم من الحياة الزاد!

لهم كتاب يخطون كل يوم به سطرا من رق، مداده تشرد، وقلمه من ذل ممدود!

منذ ساعة زراتني الجدة الكبيرة خضرة، حين تأتي إلى في المنام أسعد كثيرا، أخبرتني أن زوجتي ستلد بنتا مثل فلقة القمر، تقول أمي إن الأنثى في المنام خير سيأتي، هذه بداية لحديثها، أما الذي على نقيضه فهناك عيون زرقاء تتوارى خلف تلة جادو المسكونة بالجن عند وابور الطحين، نزف العمدة الأخير حتى ساح دمه في "بئر الغريق" ، يقف المندوه ساخرا، ومن خلفه حية تسعى، كلما نزف تراقصت، مخمور بالنشوة، مسكون بالرغبة الآثمة، واقعها في طرف من جدار متهدم، تقيأت، ففي الظلام يتحرك الشيطان، حتى إذا ما جاء الصباح، صاح المنادي لقد كانت حكاية غريب عبر إلى هنا منذ ما يقارب المائة عام، للأجداد حتى وهم موتى ذاكرة، لن تصدقوا ما أقوله لكم، في كل شتاء أضع عباءتي اليتيمة، لا أدري لم امتلكت واحدة فقط، إنها مثل وجه المنخل عبث بها فأر الخزانة، أشتملها وأطوف على الأمكنة في الظلام، أقتات من أفواه الحجر، ومن خربشة أوراق الكافور الذي يسكن عند ضفة النهر، أخبرتني الخالة فاطمة مؤكد أنكم لا تعرفونها؛ تجاورنا منذ قرن من العمر، تقول أمي عنها إنها طيبة القلب، حين كنت صغيرا سرقت منها الحكاية وراء أخرى، تضحك وتسعد بهذا، في قريتنا تنال المكانة بالسن، وفي أحيان بالعصا، تبقت لدي نتف من أسرار لما يحن أوانها، فالموتى يستعدون لمغادرة المكان، الخفراء يجوبون الشوارع، يمسكون بالصغار يبحثون عن بطاقة هوية تثبت أنهم من هنا، أما يكفي الوجه واليد واللسان والقلب انتماء، فررت منهم لما خفتهم، إنهم مصابون بالبله، لن تبقى لي أدلة انتماء غير حكاية جدتي، وحدي مصاب بمتلازمة السرد، اكتفى الآخرون بمولد سيدي الدسوقي يمرحون فيه، تقول جدتي: مولد وصاحبه غائب!

يسكن السرداب المار من تحت كفرنا حتى صان الحجر، الموتى يعرفون هذا النفق، به ذهب وياقوت ومرجان، على بابه حارسان، من كان شجاعا مر من بينهما، يحتاج السر لقلب طفلة صغيرة مثل فلقة القمر، صحوت مذعورا؛ لا أريد المال ولا الكنز، فقط أحتاج أن أكون إنسانا، لترحل حكاية الجدة دون رجعة.

«تعال نشوف»

تعال نشوف
تعال ندوْر في الدنيا
ونسأل
... من زرع هالخوف!؟
تعال نشوف
ونِهدي له
... ألمنا والعيون الهايمه بكسوف
تدوّر في المدى غيره
تبرر.. كل تقصيره
بـ حيره
تبحث بهالناس
ولا تلقى سبب يغدر به المعروف
.. ويتخطى ثمر خيره
خطيره
كل أنفاسه.. وشريره
تعال نشوف
... ونرسم كل تفاصيله
على جذوع الشجر اللي يودنيا

من أول شيْ يبكينا
..... إلى آخر غرابيله!
ولا تهتم لتأويله.. لكل اللي يهنينا
ثقيله سوء نياته
وحتى زيف ضحكاته
.... تحاول دوم تنفينا
وتهدم كل أمانينا
..... وترمينا
.. فـ وسط الصبح / يدفينا
ولا صبحه دفا للروح
ولا يرحم أبد ليله!
تعال
وداخلي يمطر
وغيمه بوحنا.. هالعين
نعيش سنين
ونتعلم بان أيامنا حيه
وآخر ذكرنا هالطين

سقت عيني قلوب العاطشين وفاض بي ترتيل
يدوّي في سما آهي ويكوي داخلي ضيّه
ولاكني ذرفت الهم واهديتـ/ صباحي ليل
ولا كن ابتساماتي تداري جروح مخفيه
برغم الضعف اتبسّم واتحمّل عنا.. واشيل
بقايا من تفاصيلي / ارتبها.. على النيه
أنا والصمت والحيره ونظره.. تحتري تعليل
وهذا الضيم يتمادى ويفرش لي عطا غيه!
فقدت الحرف في أول متاهات الأمل، والميل
بداية خطوته: كلمة، وراها ألف مرثيه!
ومرثيه
نعلقها على جدار الزمن
... ونطير
..... ومرثيه
نخبيها / عشان شرور.. ورديه

تعال نشوف
تعال ندوْر في الدنيا
ونسأل
... من زرع هالخوف!؟
تعال نشوف
وأنت اسأل..!
أنا تعبت عيوني تسأله.. والحال يتبدل
ويبدأ ضيم تأويله!
تعال
وانثر الدمعه ضما وحروف
تعال
ولا تصدق كذبه المكشوف
... وتحرم هالعيون الشوف
تعال وشوف

محمد الكحلاني